منهج نقد الاستشراق فى ندوة بقسم التاريخ

واصل قسم التاريخ برنامج ندواته العلمية لهذا العام والذي يشمل ستة ندوات بعقد ندوة عن موضوع من الموضوعات القديمة الجديدة في مجال البحث التاريخي وهو منهج الاستشراق في مجال التاريخ الاسلامي قدمه الدكتور محمد احمد محمد الاستاذ المساعد بالقسم .

وكان القسم قد بدا برنامج الندوات هذا العام ببحث قدمه الاستاذ الدكتور عادل غنيم حول « حقيقة الاستعدادات العسكرية العربية لحرب ١٩٤٨ » . كما قدم الاستاذ الدكتور عثمان سيد احمد استاذ التاريخ الاسلامي ومدير مركز الوثائق والدراسات الانسانية بحثا في الندوة الثانية بعنوان « المسلمون والتاريخ » .

وفي ندوة « منهج نقد الاستشراق في مجال التاريخ الاسلامي » لتكون الحلقة الثالثة في برنامج هذا العام ، حيث ستتواصل الحلقات ببحوث اخرى ثلاث يقدمها كل من الدكتور عبد الحسين احمد عن « السمات العامة للعصر العباسي الاول » والدكتور محمد حسن عبد الكريم حول « منهج البيهقي في كتابة التاريخ » والدكتور عبدالله عبد الرازق .

ويدير النقاش في ندوات قسم التاريخ الاستاذ الدكتور احمد بدر رئيس القسم .

لكن ماذا قدم الدكتور محمد احمد في بحثه عن الاستشراق وكيف تعامل مع منهج نقد الاستشراق في دراسة التاريخ الاسلامي ؟ وما هي المصادر التي اعتمد عليها في مواجهته للاعمال الاستشراقية التي وصلت إلى الباحثين العرب ظاهرها العمل العلمي الموضوعي وباطنها لا يخلو من سوء القصد ومحاولات الطعن الهادى لمواطن القوة في التاريخ الاسلامي ؟

يقول الدكتور محمد احمد « الاستشراق - كما اتفق عليه الكثيرون ممن تصدوا لدراساته هو اشتغال غير الشرقيين من علماء الغرب بدراسة تاريخ ولغات الشرق وحضارته .

والاستشراق في مجال التاريخ الإسلامي يعكس ذلك الصراع الذي دار بين العالمين الاسلامي والمسيحي في العصور الوسطى ، فظهرت المحاولات الاولى لفهم علوم المسلمين من جانب علماء الغرب قبل القرن العاشر الميلادي بعد ان ضم العرب المسلمون في القرن الأول الهجري السابع الميلادي شرق وجنوب البحر المتوسط واجزاء من اوروبا وحطموا وحدة الحضارة الاوروبية التي كانت تعتمد على البحر المتوسط .

ظل الاستشراق مواكبا للنزعة اللاهوتية التي سادت اوروبا في العصور الوسطى ، تلك النزعة التي كان لها صداها الفعال ابان الحروب الصليبية ، فالقرن الثاني عشر الميلادي الذي تمت فيه ترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغة اللاتينية قد شهد انطلاقة اسلامية نتج عنها هزيمة ساحقة الحقها صلاح الدين بالصليبيين في حطين سنة ١٥٨٧م ، وهو نفس القرن الذي دفعت فيه البابوية ملوك اوروبا للقيام بحملة صليبية كبرى على الشام ، وسرعان ما ازدادت الرغبة في الاستشراق في القرنين ١٣ و ١٤م بدافع من دعاة التنصير على اثر تلك الانطلاقة الجهادية التي اثبتها سلاطين المماليك وطردوا بها بقايا الصليبيين من الشام قاطبة غير انه سرعان ما ضعفت النزعة اللاهوتية عند علماء الغرب في القرن ١٩م على يد « سلفستر دى ساس » (ت ١٨٣٨م) الذي اعطى لحركة الاستشراق طابعا علميا ، واسس انموذجا لمدرسة الاستشراق العلمي والعلماني ، وكان من الطبيعي ان يخدم الاستشراق الاستعمار في اطار السعي للحيلولة دون سيادة تعاليم الاسلام الصحيحة ، واتخذوا من اجل ذلك مناهج لا تتسم بالالتزام والموضوعية ، فاخذوا يركزون اطروحاتهم العلمية على موضوعات يمكن النفاذ من خلالها الى اذهان العرب والمسلمين : منها على سبيل المثال لا الحصر ، حركات المعارضة في الاسلام ، تاريخ الفرق والمذاهب والاحزاب سعيا وراء اذكاء الفتنة بين ابناء الدين الواحد .

ولسنا من المنكرين لجهود المستشرقين في مجال العلم ، فلهم جهودهم الملموسة في ميادين التوثيق والتحليل والتصنيف والتعريب ، والفهرسة وعمليات المسح والكشف الاثري ، فضلا عن تحقيق ونشر مؤلفات من تراث اعلام العرب والمسلمين وترجمتها ، وضع اصول الدراسات البيليوجرافية ، كما انها حفظت للدراسات العربية والاسلامية بطريق غير مباشر رواجا كبيرا في شتى انحاء اوروبا وامريكا .

والحق ان حركة الاستشراق بحاجة الى مواجهة علمية هادئة تدعونا الى البحث عن الجوانب الخفية التي ينفذ منها المستشرقون طلبا لتحقيق مقاصدهم وتدعونا هذه المواجهة الى الالتزام والموضوعية ، فلا فائدة من التوجس ازاء كل ما قدمه المستشرقون من جهود علمية ، فهناك نفر قليل منهم اظهر بالفعل مواقف ايجابية تجاه الاسلام ، وهي مواقف تدعونا الى مواجهة الآخر منهم بالحجة والبرهان حتى لا ينظر الينا هؤلاء بمنظور ضيق يلصق بنا تهمة التعصب والافتقار الى العلم .

واهم ما يعيننا على مواجهة الاعمال الاستشراقية ، وبالذات تلك التي جاءت إلينا في الظاهر على انها عمل علمي في حين تحمل بين ثناياها المقاصد الخبيثة ان ننتهج اسلوبا صحيحا يجعل المستشرقين انفسهم لا يملكون الا التسليم بما نقره او على الاقل يلزمون جانب الصمت الامر الذي يسهم في خلق مناخ صحي يسمح لدفاعنا ان يروج ، وينزع من الاذهان الضالة افكارا شوهت تاريخ الاسلام ، وينبغي ان يعتدم منهجنا فيما نكتب لمواجهة الاستشراق الى جانب امتلاكنا لقواعد المنهج العلمي على ثلاثة انواع من المصادر :

١ - المصادر المسيحية التي الفها الكتاب المسيحيون الموضوعيون المعاصرون لكل فترة زمنية ورد عنها في كتابات المستشرقين اراء غير صحيحة .

٢ - المصادر المادية التي تسهم في تصحيح ما ورد في كتابات المستشرقين من اخطاء ، وهي مصادر لا يملك اى مستشرق الا ان يسلم بها .

٣ - ان نواجه كتابات المستشرقين التي تحمل بين ثناياها تشويه تاريخنا وانكار حضارتنا بكتابات اخرى دونها اقرانهم في نفس المجال ، وما اجمل ان يكون الرد على الشيء من داخل الشيء .

من خلال اعتمادنا فيما نكتب على هذه المصادر الثلاثة نعالج نماذج لآراء المستشرقين في ضوء دراسة شاملة للمحاور الاربعة التالية :

دعوة إلى منهج اسلامي قويم

من المفيد ان ناخذ بشدة بالمنهج القرآني في معالجة ما يدور حول طبيعة العلاقة بين المسلمين وغيرهم ممن استمسكوا بمسيحيتهم او بمذاهبهم الايديولوجية ، ذلك اذا كان القرآن الكريم قد نص صراحة بمبدا حرية العقيدة ، فإنه - ايضا - نص صراحة على ضرورة التعارف والتواصل بين الخلق في شيء ارجاء الارض ، ومن خلال ذلك التعارف تكون الدعوة الى الاسلام في ظل منهج قويم تنفذ منه تلك الدعوة الغراء السمحاء الى قلوب البشر اجمعين .

ويعيننا المنهج القرآني على فهم حركة التاريخ ، ذلك ان القرآن الكريم قد اكسب القصص - اي الحديث عن الماضي - بعدا تاريخيا من خلال المعطيات التاريخية للوقوف على المبادىء الاساسية في حركة التاريخ البشري ، تلك المبادىء التي سماها القرآن الكريم سننا ، ودعانا مرات الى تاملها ، واعتماد مدلولاتها في افعالنا الراهنة ونوازعنا المستقبلية ، ومن هنا ينبغي ان ننظر إلى اسهاماتنا عبر قرون مضت في حركة التاريخ فنقر ما هو صواب ، ونفند ما هو سلبي وغير صحيح استشرافا لآفاقنا المستقبلية .

ويطرح القرآن الكريم السنن وتداولها بين الناس عبر الحقبات الزمنية مقررا بواقعية عدم ديمومة اي من هذه المعطيات ، ولا يستثنى منها المسلمين « وتلك الايام نداولها بين الناس » وتعني « بين الناس » عموم هذه السنة التي لا محيص عنها ، ويطرح القرآن الكريم لفكرة المداولة كفعل دينامي على هذا النحو لتمحيص الجماعات البشرية واثارة الصراع الدائم بينها تحريكا للفعل التاريخي مصحوبة بالأمل والتجدد دون تشاؤم وحزن على النحو الذي ساد

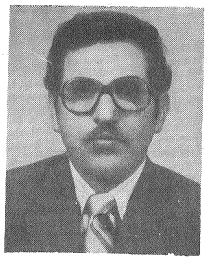

د . محمد احمد

المذاهب الوضعية التفسيرية ولا يقدمها كحتمية قاهرة يتحول الناس ازاءها الى عبيد مسلوبي الارادة ؛ وهكذا تحمل المداولة القرآنية كافة ايجابياتها التاريخية ، وتدعو الى ديمومية الامل البشري دونما حزن او هوان « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » ، وحول هذه الجزئية كتب عماد الدين خليل اطروحته الجديرة بالاعتبار وسماها « التفسير الاسلامي للتاريخ » .

ومن هنا ينبغي ان يستشرف المسلمون افاق مستقبلهم في ظل هذا المعترك الخطير بقدر كبير من الرغبة في العمل والرأب المستمر دونما احساس بياس او هزيمة نحو مناشط فعالة لتحقيق صورة صادقة من التطبيق الصحيح لمبادىء الاسلام .

اما المنهج الذي عكف عليه المستشرقون في الكتابة عن الشرق فيغلب عليه الأخذ بمبدا تداخل العلوم مع العمل في اطار الايديولوجيات المتعددة التي تخدم وجهة النظر الاوروبية الامر الذي اضفى على المنهجية الغربية طابع الشمولية والتعميم ، وان كان ذلك يسهم في تنشيط فروع المعرفة بعضها ببعض .

والرد على هذه المنهجية لا ياتي الا بتحديد الموضوعات التي عنى بها المستشرقون ، مثل حركة الفتوحات الاسلامية ، الابداع عند العرب ، الاصول التاريخية للمسلمين ، وهكذا ؟ الامر الذي يعالج بطبيعة الحال بما هو ات من عجالة حول المحورين ثانيا وثالثا ..

حصر الروايات الضعيفة والآراء المعارضة للمنهج الاسلامي

ينبغي ان نقرما هو صحيح مما ورد في اعمالنا التراثية ، ونفند ما هو غير صحيح ، وان الأوان بان يقوم فريق عمل من جيل جديد يشمل العلماء من العرب والمسلمين ممن تلقوا تدريبا علميا اجنبيا او اسلاميا بعمل علمي موسوعي جاد يستهدف تنقية المصادر العربية والاسلامية من الروايات الضعيفة وغير الصحيحة بالعمل على تفنيدها بادلة تقطع ببطلانها وفق قواعد المنهج العلمي مع التركيز على الاعمال الاستشراقية التي تدعم هذا العميل والمصادر الاصلية الاخرى وبالذات المصادر المسيحية والمغفية ، على ان ذلك العمل ينبغي ان يعرض منهجا خاصا بقسم التاريخ الاسلامي إلى موضوعات عامة وليس الى فترات زمنية حتى يمكننا ان نواجه الآراء الاستشراقية العدائية ، ذلك لأن المستشرقين درجوا في كتاباتهم على ابراز قضايا عامة من خلال تناولهم للحقبات التاريخية او من خلال تتبعهم لجزء معين من العالم الاسلامي خلال عصر بذاته من العصور الاسلامية .

دحض فريات المستشرقين في مجال التاريخ الاسلامي

يجدر بنا عند تناولنا لفريات المستشرقين ان نعتمد مدلولات تجاربنا الماضية بما يعيننا على فهم حاضرنا ونوازعنا في المستقبل في صور تفاؤلية تصديقا لدينامية حركة التاريخ التي ينبغي ان تقر شرع الله عز وجل في الأرض ، وندرك ان ديننا الاسلامي بما له من عالمية ينبغي ان يكون له مجال واسع على ظهر هذه البسيطة ؛ وفي ضوء ذلك ينبغي ان نواجه هذه الفريات بطرح قضيتين هامتين تتصلان بشكل مباشر بمنهجنا ؟

● اولاهما : عالمية الاسلام ..

● ثانيهما : الاجناس من ذوى القوميات المختلفة من ترك وكرد وبربر ، وغير ذلك .

ونقترح ان يقوم فريق عمل من العلماء ممن تخصصوا في مجال التاريخ والحضارة الاسلامية بعمل موسوعي على نحو ما اشرنا به في شان حصر الروايات الضعيفة الواردة بكتب المسلمين الاقدمين ، على ان يكون التناول منصبا على هاتين القضيتين ، وفي اطار ذلك يمكن حصر آراء المستشرقين حول جزئية من الجزئيات التي تسلسلها كل قضية على حدة مع الاعتماد على قواعد المنهج العلمي واستقصاء المعلومات التي تدحض هذه الآراء من بطون الكتب ذات الصلة المباشرة بتاريخ الامم غير الاسلامية ، واخرى مادية لنصل في النهاية الى رؤية شاملة وكاملة عن اعمال المستشرقين في هذا السبيل .

التاريخ والدعوة

ما نعنيه ان ناخذ من التاريخ ما يعيننا على الالتزام بالمنهج الصحيح في الدعوة إلى الاسلام ، وليس المقصود ان يتبوا المؤرخون هذه المكانة الجديدة بالاعتبار ، وادعو الى العودة الى التراث لنتعرف على ظاهرتين متمايزتين من حيث الشكل ، ومتماثلتين من حيث الهدف والمضمون اولاهما ؟ ان المسلمين احرزوا نجاحا في مجال الدعوة الى الاسلام عبر العصور المتلاحقة عن طريق التجارة وتنشط الاتصالات الدبلوماسية مع العالم الخارجي ، والتي نشطت بطبيعة الحال بدافع التجارة ، وثانيهما ان الغرب الاوروبي نهض نحو التقدم خلال فترة زمنية من العصور الوسطى بعد تعرفه على اعمال المفكرين المسلمين ، وواكب ذلك نشاط ملحوظ بدافع التنصير ، وتنهض هاتان الظاهرتان دليلا على ان اندماج المسلمين الهادف بغيرهم من الاجناس الاخرى كثيرا ما يؤتي ثماره في مجال الدعوة الى الاسلام ، وان العربية اذا ما انتشرت بشكل ملحوظ بين الاوروبيين بهذه الوسيلة سوف يكون لها اثارها المثمرة في هذا المجال ، وذلك في اطار من المبادىء الهامة ، منها على سبيل المثال لا الحصر .

١ - ان يرتبط المبعوثون المسلمون في اوربا وامريكا بالمؤسسات الدينية في تلك الجهات .

٢ - ترجمة الموسوعات العلمية الى الالمانية والفرنسية والانجليزية والروسية على ان يتسلح الدعاة بهذه التراجم للافادة منها .

٣ - ان يلم الدعاة والقائمون على تدريس العربية لغير الناطقين بها باكثر من لغة فضلا عن تبصيرهم بالمنهج الاسلامي ، وهكذا .